

رقم الدرس ٤٠٨
الأربعاء ٢٠-١-١٤٣١ هـ

شرح سنن الترمذي كتاب الجنائز

المُلَقَّاة بِجَامِعِ الْمَلِكِ سُعُود - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِجَدَّة

لِفَضِيلَةِ الشَّيْخِ الدُّكْتُور

مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُخْتَارِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مُزَيْدٍ الْجَنْبِي الشَّنْقِيطِيِّ
الْمُدَرِّسِ بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ

وَعُضُو هَيْئَةِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ بِالْمَمْلَكَةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّعُودِيَّةِ

وَمُقَوِّضِ الْإِفْتَاءِ بِمَنْطَقَةِ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ

حَفَظَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَفَعَ بِعِلْمِهِ وَغَفَرَ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ

ملاحظة: هذه الدُّرُوسُ لَمْ تُرَاجَعْ مِنْ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ - حَفَظَهُ اللَّهُ - .

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

قَالَ الإمام أبو عيسى الترمذي - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: [بَابُ مَا جَاءَ فِي عِيَادَةِ الْمَرِيضِ].
قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: حَدَّثَنَا حميدُ بْنُ مسعدةَ حَدَّثَنَا يزيدُ بْنُ زريعٍ حَدَّثَنَا خالدُ الحِذَّاءُ، عن أبي قلابَةَ،
عن أبي أسماءَ الرَّحِجِيِّ، عن ثوبانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ -، عن النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال:
((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ)).

قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: وفي البابِ عن عليٍّ، وأبي موسى، والبراءِ، وأبي هُرَيْرَةَ، وأنسٍ، وجابرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
جَمِيعًا -.

قَالَ الإمام أبو عيسى - رَحِمَهُ اللَّهُ -: حديثُ ثوبانَ حديثٌ حسنٌ.

الشَّرْحُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على خير خلق الله
أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن سار على سبيله ونهجه واستن بسنته إلى يوم الدين، أمّا بعدُ:
فيقول المصنف - رَحِمَهُ اللَّهُ -: [بَابُ مَا جَاءَ فِي عِيَادَةِ الْمَرِيضِ] هذا البابُ يشتملُ على بيانِ هدي
النبيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وسنتِهِ في التَّغْيِيبِ في عِيَادَةِ الْمَرِيضِ وزيارتهِ.
وهذا البابُ يعتني به العلماء - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - في كتابِ الْجَنَائِزِ، وَالْمُنَاسِبَةُ فِيهِ: واضحةٌ ظاهرة؛ لأنَّ
الْمُرَادَ أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَأَصَابَهُ مَا كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَرَضِ وَالسَّقَمِ الَّذِي
فِي الْغَالِبِ إِذَا كَانَ مَرَضًا مُحَوِّفًا أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِ أَجَلُهُ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُنَاسِبِ بَيَانُ هَدْيِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - فِي زِيَارَةِ مَنْ كَانَ هَذَا حَالُهُ.

وقد ذكر العلماء - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - والأئمةُ من أهلِ الفقهِ جُمْلَةً مِنَ الْمَسَائِلِ وَالْأَحْكَامِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِعِيَادَةِ
الْمَرِيضِ فِي كِتَابِ الْجَنَائِزِ، وَإِلَّا قَدْ يَفْرُدُهَا بَعْضُ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ بِأَبْوَابٍ خَاصَةٍ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ،
لَكِنَّ الْمَصْنَفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - تَرَجَّمَ بِهَذِهِ التَّرْجَمَةِ.

وعِيَادَةُ الْمَرِيضِ تَنْقَسِمُ إِلَى قَسْمَيْنِ:

الْعِيَادَةُ مِنْ حَيْثُ الْأَصْلُ الْعَامِ: وَهِيَ عِيَادَةُ كُلِّ مَنْ أَصَابَهُ الْمَرَضُ وَالسَّقَمُ.

والقسم الثاني: عيادة مَنْ هُوَ أَشَدُّ وَآكُدُّ، وهو الْمَرِيضُ مَرَضَ الْمَوْتِ.

والمصنف -رَحِمَهُ اللهُ- عَمَّمَ فِي هَذِهِ التَّرْجِمَةِ، فَإِذَا كَانَ الْمَرَادُ الْعُمُومَ فَالْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: **[عِيَادَةُ الْمَرِيضِ]** أَي جِنْسِ الْمَرِيضِ، أَي سَوَاءً: كَانَ مَرَضُهُ مَخَوِّفًا، وَهُوَ مَرَضُ الْمَوْتِ، أَوْ كَانَ مَرَضُهُ غَيْرَ مَخَوِّفٍ، كَالْأَمْرَاضِ الْعَادِيَةِ، كَأَنْ يَصِيبَهُ زَكَامٌ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ، فَيَعُودُهُ أَخُوهُ، فَهَذِهِ مِنَ الْأَمْرَاضِ غَيْرِ الْمَخَوِّفَةِ.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، عِيَادَةُ الْمَرِيضِ الَّتِي تَرْجَمُ لَهَا -رَحِمَهُ اللهُ- يَرِيدُ بِهَا الْإِشَارَةَ إِلَى فَضْلِ زِيَارَةِ الْمَرِيضِ حَالِ مَرَضِهِ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ وَالْأَثَمَةُ -رَحِمَهُمُ اللهُ- عَلَى أَنَّ مِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ أَنَّهُ إِذَا مَرَضَ عَادَهُ، وَهَذَا مِنْ حَقُوقِ أَخَوَةِ الْإِسْلَامِ.

والفضل في هذه العيادة يعودُ على: الشَّخْصِ الْمَرِيضِ، وَالشَّخْصِ الَّذِي يَزُورُهُ، فَيَقُومُ بِحَقِّهِ.

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي عِيَادَةِ الْمَرَضِيِّ خَيْرَ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلِذَلِكَ سَنَّهَا رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَوْلًا، وَعَمَلًا، وَإِقْرَارًا:

فَجَاءَتْ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ عَنْهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَنَّهُ كَانَ يَعُودُ الْمَرَضِيَّ، وَكَانَ هَدِيَّةً -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فِي ذَلِكَ أَكْمَلَ الْهَدْيِ.

وَكَذَلِكَ أَيْضًا صَحَّ عَنْهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- أَنَّهُ رَغَّبَ فِي عِيَادَةِ الْمَرَضِيِّ، بَلْ بَيَّنَّ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُ مِنْ إِفْسَاحِ الْأَجْلِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ، كَأَنْ يَقُولَ لَهُ: (بِإِذْنِ اللهِ تَبَرَّأْتُ، وَيَمُدُّ اللهُ فِي عَمْرِكَ، وَيَحْصِلُ مِنْكَ الْخَيْرُ)، وَهَذَا كَمَا قَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَى الْمَرِيضِ فَتَقَسَّمُوا لَهُ فِي أَجَلِهِ))، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بِأَوْلِيَائِهِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْلِمِينَ، حَيْثُ جَعَلَ لَهُمْ هَذِهِ السُّنَنَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الظُّرُوفِ الْعَصِيْبَةِ الصَّعْبَةِ.

فَالْخَيْرُ يَعُودُ عَلَى مَنْ يَعُودُ، وَعَلَى مَنْ يُعَادُ، وَهُوَ الشَّخْصُ الْمَرِيضُ، وَعَلَى أَهْلِهِ.

وَبِعِيَادَةِ الْمَرَضِيِّ يَنْتَفِعُ الْمُسْلِمُ فِي دِينِهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْعِيَادَةَ يَرْفَعُ اللهُ بِهَا دَرَجَةَ الْعَبْدِ، وَيُعْظِمُ بِهَا أَجْرَهُ، كَمَا سَيَأْتِي -إِنْ شَاءَ اللهُ- مِنَ الْأَحَادِيثِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَمِنْهَا:

قَوْلُهُ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-: ((مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَعُودَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: جَنَاهَا))، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الْأَجْرِ وَالْمَثُوبَةِ.

وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ((مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ، كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ)).

فهذا كُلُّهُ مِنَ الْفَضَائِلِ الَّتِي أَعَدَّ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِ حِينَ يَزُورُ أَخَاهُ الْمُؤْمِنَ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ.
ثُمَّ إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَعْتَبِرُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَكْسِرُ قُلُوبَ الْجَبَابِرَةِ، وَيُزِيلُ عَنِ الْإِنْسَانِ الْغُرُورَ، غُرُورَهُ بِالْدُّنْيَا، وَغُرُورَهُ بِمَتَاعِهَا الزَّائِلِ الْخَائِلِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ زُبَّانًا أَصَابَتْهُ الْغَفْلَةُ، فَعَفَلَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- بِمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَغَيْرِهَا مِنَ الْفِتَنِ، فَيَقْسُو الْقَلْبَ، وَيَغْفَلَ عَنِ الرَّبِّ، وَإِذَا عَادَ الْمَرِيضَ انْتَبَهَ مِنْ غَفْلَتِهِ، وَاسْتَيْقَظَ مِنْ مَنَامِهِ، وَتَذَكَّرَ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَجَمِيلَ مَنَّتِهِ لَدَيْهِ، إِذَا عَادَ الْمَرِيضَ تَذَكَّرَ أَنَّ الْعَافِيَةَ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّهَا نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ أَنْ يَسْلُبَهُ الْقُوَّةَ، وَأَنْ يَسْلُبَهُ الْحَوْلَ، وَأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ أَنْ يَزِيلَ عَنْهُ عَافِيَتَهُ وَمَنْ هُنَا يَنْكَسِرُ قَلْبُهُ لِلَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، فَيَعْرِفُ مَقْدَارَ النِّعْمَةِ، وَيَخَافُ مِنْ حُلُولِ النِّقْمَةِ، يَخَافُ مِنْ زَوَالِ النِّعَمِ، وَحُلُولِ الْبَلَاءِ وَالسَّقَمِ وَالْأَلَمِ، فَلِذَلِكَ يَزُولُ الْغُرُورُ.

وَكَانَ الْعُلَمَاءُ وَالْطَّبَّاعُ وَأُئِمَّةُ الْهُدَى إِذَا أُشْتُكِي لَهُمْ مِنْ قَسْوَةِ الْقَلْبِ، أَمَرُوا الْإِنْسَانَ الَّذِي أُبْتُلِيَ بِذَلِكَ أَنْ يَعُودَ الْمَرَضَى، وَأَنْ يَشِيعَ الْمَوْتَى، وَأَنْ يَدْفَنَ؛ حَتَّى يَرَى بِأَمِّ عَيْنِيهِ تِلْكَ الْعِبرَةَ الَّتِي تَهْزُ الْقُلُوبَ، وَتَذَكِّرُ بِاللَّهِ عِلَامَ الْغُيُوبِ.

فَعِيَادَةُ الْمَرَضَى فِيهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ لِمَنْ يَعُودُ، وَكَمْ مِنْ عَبْدٍ قَسَا قَلْبُهُ، وَلَهَا عَنْ رَبِّهِ، فَأُصِيبَ فِي قَرِيبٍ لَدَيْهِ، أَوْ عَزِيزٍ لَدَيْهِ، كَانَ فِي أَوْجِ الْقُوَّةِ، فَكَسَرَ اللَّهُ قُوَّتَهُ، وَكَانَ فِي أَوْجِ الْعَافِيَةِ، فَأَزَالَ اللَّهُ عَنْهُ عَافِيَتَهُ، فَلَمَّا رَأَى حَالَهُ اعْتَبَرَ وَادَّكَرَ، وَأَنَابَ إِلَى اللَّهِ -جَلَّ جَلَالُهُ-.
وَلِذَلِكَ تَجِدُ مَنْ يَجْعَلُ لَهُ كُلَّ بَيْنٍ فِتْرَةً وَفِتْرَةً وَقَتًا يَزُورُ فِيهِ الْمَرَضَى وَيَعُودُهُمْ، أَوْ يَشِيعُ الْمَوْتَى، أَوْ يَزُورُ قُبُورَهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- يَنْفَعُهُ بِذَلِكَ نَفْعًا عَظِيمًا.

وَهَذَا أَمْرٌ كَانَ عَلَيْهِ الْأُئِمَّةُ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّالِحُونَ، وَكَانَ عَلَيْهِ الْأَخْيَارُ، وَيَتَأَكَّدُ ذَلِكَ إِذَا كَانَ عَزِيزًا عَلَى الْإِنْسَانِ، أَوْ لَهُ حَقٌّ عَلَى الْإِنْسَانِ لِعِزَّةِ الدِّينِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ عِزَّةٍ، فَمَنْ أَعَزَّ بِاللَّهِ أَعَزَّهُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَمِثْلُ الْوَالِدِينَ، وَمِثْلُ الْقَرَابَةِ، وَمَنْ لَهُ حَقٌّ فَعِيَادَتُهُ أَكْثَرُ.

وَعَلَى الْمُسْلِمِ أَلَّا يَنْشَغَلَ بِهَذِهِ الدُّنْيَا، -فَنَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ- أَنَّ الْبَعْضَ يَفْرِطُ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْعَظِيمِ، بَلْ إِنَّهُ قَدْ يَخَافُ مِنْ عِيَادَةِ الْمَرَضَى، وَقَدْ يَكْرَهُ عِيَادَةَ الْمَرَضَى، وَيَتَوَجَّسُّ مِنْهَا، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ مَا سَنَّ فِي كِتَابِهِ، وَلَا شَرَعَ فِي كِتَابِهِ، وَلَا سَنَّ يَهْدِي نَبِيِّهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وَلَا شَرَعَ يَهْدِي نَبِيِّهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إِلَّا مَا فِيهِ خَيْرٌ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لَا يَنْبَغِي لِمُؤْمِنٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَفْكَرَ طَرْفَةَ عَيْنٍ أَنَّ شَيْئًا شَرَعَهُ اللَّهُ -جَلَّ وَعَلَا- أَنْ يَكُونَ فِيهِ شَرًّا عَلَيْهِ، أَبَدًا، بَلْ لَا

يَكُونُ فِيهِ إِلَّا الْخَيْرُ وَالْبِرْكَةُ وَالنِّعْمَةُ.

وَلِذَلِكَ الْبَعْضُ يَخَافُ مِنْ عِيَادَةِ الْمَرْضَى، وَيَخَافُ مِنْ تَشْيِيعِ الْجَنَائِزِ، وَلَكِنَّهُ لَوْ وَثِقَ بِاللَّهِ رَبِّهِ، وَاتَّبَعَ هَدْيَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَسُنَّتِهِ، حَيْثُ أَمَرَ الصَّحَابَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - كَمَا فِي حَدِيثِ الْبَرَاءِ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ أَمَرَهُمْ بِعِيَادَةِ الْمَرْضَى، وَتَشْيِيعِ الْجَنَائِزِ، هَذَا إِذَا اتَّبَعَهُ وَجَدَ فِيهِ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ. **فَالْمَقْصُودُ:** أَنَّ الْبَعْضَ - نَسَأَلَ اللَّهُ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ -، وَهَذَا مِنْ تَسَلُّطِ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَفَلَ عَنْ حَقُوقِ إِخْوَانِهِ الْمُسْلِمِينَ.

وَقَدْ يَبْلُغُ بِالْبَعْضِ - نَسَأَلَ اللَّهُ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ - أَنْ يَضِيعَ حَقُّ ذِي الْحَقِّ، وَهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَتَجِدُهُ يَمْرُضُ أَخُوهُ فَلَا يَعُودُهُ إِلَّا قَلِيلًا، وَلَا يَزُورُهُ إِلَّا قَلِيلًا. بَلْ قَدْ يَبْلُغُ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ يَكُونُ فِي الْمَنْصَبِ، وَيَكُونُ فِي النِّعْمَةِ، فَإِذَا أُبْتُلِيَ قَرِيبُهُ ظَنَّ أَنَّ هَذَا الْمَنْصَبَ، وَأَنَّ عِلْوَ مَرَاتِبِهِ، وَأَنَّ وَظِيفَتَهُ تَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَرَابَتِهِ فِي أَحْلَاكِ الظُّرُوفِ، فَتَجِدُهُ يَعْتَذِرُ بِأَنَّهُ مَشْغُولٌ، إِمَّا بِوُظُفَتِهِ وَأَعْمَالِهِ، مَعَ أَنَّهُ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَزُورَ، وَيُمَكِّنُهُ أَنْ يَعُودَ. بَلْ قَدْ يَصِلُ الْحَالُ بِبَعْضِهِمْ - وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ - أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ مَعَ وَالِدِيهِ، فَإِذَا مَرَضَتْ أُمُّهُ قَالَ: احْمِلُوهَا إِلَى الْمُسْتَشْفَى، وَظَنَّ أَنَّ الْأَمْرَ يَقِفُ عِنْدَ دَفْعِ فَاتُورَةِ الْمُسْتَشْفَيَاتِ دُونَ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا مِنْ قَدَمِ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ، وَقَدْ قَالَ - بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -: ((الزَّمْ رَجُلَهَا فَتَمَّ الْجَنَّةُ)).

فَعِيَادَةُ الْمَرْضَى حَقٌّ لِلْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، فَإِذَا كَانَ الْحَقُّ عَلَيْهِ عَظِيمًا كَقَرِيبِهِ، وَوَالِدِيهِ، وَأَهْلِي الْحَقِّ، كَأَهْلِ الْعِلْمِ وَنَحْوِهِمْ، فَإِنَّهُ يَتَأَكَّدُ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَفْرِطَ فِيهَا.

وَإِذَا نَظَرَ إِلَى هَذِهِ النُّصُوصِ، وَالْأَبْوَابِ الَّتِي عَقَدَهَا الْعُلَمَاءُ وَالْأُئِمَّةُ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - فِي فَضْلِ عِيَادَةِ الْمَرْضَى، فَإِنَّ هَذَا فَائِدَتُهُ **أَمْرَانِ:**

الْأَمْرُ الْأَوَّلُ: أَنَّ هَذَا يَدْعُوهُ وَيَحْتَثُّهُ عَلَى فِعْلِ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بِفَعْلِهِ مِنْ عِيَادَةِ الْمَرْضَى؛ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا نَظَرَ إِلَى هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي فَضْلِ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ هَوَّنَ اللَّهُ بِهَا مَشَقَّةَ الْعِيَادَةِ.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِالِاسْتِشْعَارِ، بِمَعْنَى أَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَشْعِرُ عَظِيمَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي هَذِهِ الْعِيَادَةِ، فَلَا يَزُورُ مُحَابَاةً، وَلَا مُجَامَلَةً، وَلَا مُصَانَعَةً، وَلَا تَكَلُّفًا، وَلَكِنْ يَزُورُ احْتِسَابًا لِلْأَجْرِ عِنْدَ اللَّهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -؛ لِأَنَّ الْعِيَادَةَ مِنَ الْعَادَاتِ، وَالْعَادَاتُ قَدْ تَصَرَّفَتْ عَنِ الْعِبَادَاتِ، فَقَدْ يَعُودُ الْإِنْسَانُ مَنْ هُوَ جَارُهُ، وَلَكِنْ مِنْ بَابِ الْعَادَةِ، لَا مِنْ بَابِ الْعِبَادَةِ.

فهذه النصوص: تَحْتَ الإنسانَ على العمل.

وثانيًا: تدعوهُ إلى أَنْ يستشعرَ المعاملةَ معَ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

فنسألُ اللهَ العظيمَ رَبَّ العرشِ الكريمِ أَنْ يرزقنا التمسكَ بالسنة، وَأَنْ يعيننا على أداءِ الحقوقِ، وَأَنْ يغفرَ لنا ما ضيَّعنا وفرطنا في ذلك.

يقولُ المصنف - رَحِمَهُ اللهُ -: **[بَابُ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ]** الَّذِي يَظْهَرُ أَنَّهُ: **[بَابُ فَضْلِ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ]** أي سأذكرُ لك في هذا الموضعِ مَا وَرَدَ عَنْ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في فضلِ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ، أي زيارةِ الْمَرِيضِ.

[وَالْمَرِيضِ]: (أَلْ) في (الْمَرِيضِ) للجنسِ، ومنْ هُنَا قَالَ بعضُ العلماءِ: إِنَّ عِيَادَةَ الْمَرِيضِ تشملُ كُلَّ مريضٍ، حتَّى ولو شاكتهُ الشوكَةُ فزرتُهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تُحْتَسَبَ الأجرُ عندَ اللهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - فَإِنَّكَ في عِيَادَةِ الْمَرِيضِ، ثُمَّ إِذَا كَانَتْ حاجتُهُ أَشدَّ كَانَ الأجرُ أعظمَ.

قَالَ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -: عن ثوبانَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - عن النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ: **((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ)).**

الشَّرْحُ:

((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ))، ((إِنَّ)): بصيغة التوكيد؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ غَيْبِيٌّ أَطْلَعَ اللهُ نَبِيَّهَ على هذا الأمرِ الذي لا يُمكنُ للعقولِ أَنْ تدركهُ.

أَنَّ مَنْ ((عَادَ)): أي خرجَ من بيته وفي نيته أَنْ يعودَ أخاهُ المسلمَ.

وقوله: ((أَخَاهُ الْمُسْلِمَ)) فيه منطوقٌ، وفيه مفهومٌ:

منطوقُهُ: ما ذكرناه مِنْ مشروعِيَةِ عِيَادَةِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ، وهذا حقٌّ مِنْ حقوقِ المسلمِ على أخيه المسلمِ.

ومفهومُهُ: أَنَّ الْمُسْلِمَ لا يعودُ الكافرَ، لكنْ دلتِ السنةُ على أَنَّ الْمُؤْمِنَ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يعودَ الكافرَ مِنْ

أَجْلِ أَنْ يدعوهُ للإسلامِ، ومنْ أَجْلِ أَنْ يرغبهُ في الإسلامِ، كما فعلَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وثبتَ

عنه ذلكَ، فقد عادَ اليهوديَّ، وكانَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يعودُ المشركينَ، حتَّى ولو كانوا مِنْ غيرِ

القرايةِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يذكرَهُمُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - وبالإسلامِ، كما في الصَّحِيحِ مِنْ حديثِ أَبِي طَالِبٍ

حينمّا حضره النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وعندهُ الأشياخُ فقال: ((أَيُّ عَمٍّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أَحَاجُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ))، فهذا من العيادة بقصدِ دعوتِهِ للإسلام، وهذا هو المشروعُ أنَّ المسلمَ يعودُ غيرَ المسلمِ من أجلِ دعوتِهِ للإسلام، أو تأليفِهِ للإسلام: **الدَّعْوَةُ**: أنْ تباشِرَهُ، وتقولَ لَهُ: أَسْلِمْتَ تَسْلَمَ، أَسْلِمْتَ وَأَنْجَ مِنَ النَّارِ، وتبيِّنْ لَهُ الحَقَّ والهُدَى. وتأليفُهُ: أنْ تفعلَ هذا الأمرَ بحيثُ يغلبُ على ظنِّكَ أنَّه سيكونُ لَهُ وَقَعٌ في نفسِ هذا الكافرِ، بحيثُ يهيئَكَ لدعوتِهِ.

فالأولُ: تفضي بِهِ إلى الغايةِ مباشرةً بالدَّعْوَةِ، والثاني: تُهيئُ بِهِ الأسبابَ لدعوتِهِ، كما لو أهديته، أو دعوتَهُ إلى طعامِك، أو أَجَبْتَ طعَامَهُ من بابِ التَّهْيِئَةِ للدَّعْوَةِ، وهذا كُلُّهُ مشروعٌ، ويثابُ المسلمُ عليه.

((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ لَمْ يَزَلْ فِي حُرْفَةِ الْجَنَّةِ))، ((إِذَا عَادَ)) هذا عامٌّ، سواءً عادَهُ وهو في القرية، أو عادَهُ في قريةٍ ثانيةٍ، أو مدينةٍ ثانيةٍ، قَرَبَ الْمَكَانِ أو بَعُدَ، ولذلك يُكْتَبُ لَهُ هذا الفضلُ على حسبِ مَا يكونُ مِنْهُ مِنَ التَّعَبِ والنَّصَبِ، فإذا كانتِ العيادةُ أَقْلَ مشقةً كَانَ أَجْرُهَا أَقْلَ من العيادةِ التي هي أَكْثَرُ مشقةً، كما قالَ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الصحيح: ((ثَوَابُكَ عَلَى قَدْرِ نَصَبِكَ))، فلو أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ أَخًا لَهُ أُصِيبَ بِمَرَضٍ، فسافرَ لَهُ من أجلِ أَنْ يعودَهُ ويزوره، فَإِنَّهُ في حُرْفَةِ الْجَنَّةِ حتى يعودَ من سفرِهِ، وإذا خرجَ لَهُ في مدينتِهِ فكذلك.

((لَمْ يَزَلْ فِي حُرْفَةِ الْجَنَّةِ)): هذا جوابُ الشرطِ أَنْ تَحْصَلَ العيادةُ، فقوله: ((إِذَا عَادَ)) بِمَجْرَدِ أَنْ يَتَدَيَّ العيادةُ، بِمعنى بِمَجْرَدِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِهِ، وليس المرادُ ((إِذَا عَادَ)) أَثْنَاءَ العيادةِ فقط. قالَ بعضُ العلماءِ: إِنَّهُ بِمَجْرَدِ خُرُوجِهِ، وهذا مبنيٌّ على أَنَّ صِغَةَ: ((إِذَا فَعَلَ)) المرادُ بِهَا ابتداءُ الفعلِ. وقالَ بعضُ العلماءِ: ((إِذَا عَادَ)) المرادُ بِهِ إثناءُ الزيارةِ، وَأَنَّ العيادةَ تَبْدَأُ بِجُلُوسِهِ مَعَهُ. **ويَقْوِي الوجهَ الأولُ قوله: ((حَتَّى يَعُودَ))**.

وقوله: ((حَتَّى يَعُودَ)) مقابلُ لقوله: ((إِذَا عَادَ)) فهذا يدلُّ على أَنَّ قوله: ((حَتَّى يَعُودَ)) أي حتى يرجع، وإذا كَانَ الأجرُ والفضلُ وهو العيادةُ حاصلًا في الرجوعِ؛ فهو لِأَنَّهُ إِذَا كُتِبَ الأجرُ في الرجوعِ، فهو من بابِ أولى في الذهابِ؛ لِأَنَّ الذهابَ أقوى من الرجوعِ، والنصوصُ دالةٌ، حتى أَنَّ في النصوصِ ما يدلُّ على أَنَّ الرجوعَ لا يَكْتَبُ في بعضِ العباداتِ إلا بالنيةِ، كما في حديثِ الرجلِ الذي كانتْ لا تَحْطُّهُ الصلاةُ، فالأصلُ الذهابُ، وَأَنَّهُ يُكْتَبُ الأجرُ في الذهابِ، فَلَمَّا نَبَّهَ النبيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ- عَلَى أَنَّ هَذَا الْفَضْلَ لِلْعَبْدِ حَتَّى يَرْجِعَ كَانَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ الْأَجْرُ بِمَجْرَدِ خُرُوجِهِ مِنْ بَيْتِهِ، بِشَرَطٍ: أَنْ تَكُونَ نِيَّتُهُ الْعِيَادَةَ.

((لَمْ يَزَلْ فِي حُرْفَةِ الْجَنَّةِ)): الْحَرْفُ: هُوَ الْجَنَى، حَرْفُ الْبَسْتَانِ أَنْ يَجْنِيَ ثَمَرَتَهُ. و((حُرْفَةِ الْجَنَّةِ)) الْجَنَّةُ: مَأْخُودَةٌ مِنْ: (جَنَّ الشَّيْءُ) إِذَا اسْتَتَرَ، وَسُمِّيَ الْبَسْتَانُ جَنَّةً؛ لِأَنَّهُ يَجْنَى مِنْ فِيهِ، بِمَعْنَى يَسْتَرُهُ، فَإِذَا دَخَلَ الْبَسْتَانُ سِتْرُهُ الشَّجَرُ، وَسِتْرُهُ مَا فِي الْبَسْتَانِ، فَوُصِفَ الْبَسْتَانُ بِكَوْنِهِ جَنَّةً، وَوَصَفَ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِذَلِكَ، وَسُمِّيَتْ الْجَنَّةُ جَنَّةً؛ لِكَثْرَةِ مَا فِيهَا مِنَ الْحَدَائِقِ: {إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا}، وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ بِالْجَنَّةِ.

وَقَوْلُهُ: ((فِي حُرْفَةِ الْجَنَّةِ)) فَسَّرَهُ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- حِينَئِذٍ قِيلَ: ((وَمَا حُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: جَنَاهَا))، وَجَنَى الشَّيْءُ: ثَمَرْتُهُ وَمَا يَجْنِيهِ مِنْهُ، بِمَعْنَى مَا يُحْصَلُهُ وَمَا يَجْدُهُ. وَلَمَّا كَانَتِ الْبَسَاتِينُ وَالْأَشْجَارُ وَالْمَزْرُوعَاتُ هَا تَمْرَةً وَصَفَ مَنْ يَأْخُذُهَا عِنْدَ الْمَحَاصِيلِ وَعِنْدَ الْجَذَازِ وَالْحَصَادِ بِكَوْنِهِ (جَانِيًا) يُقَالُ: (جَنَى ثَمَرَةَ بَسْتَانِهِ) إِذَا قَطَفَهَا وَأَخَذَهَا. وَقَوْلُهُ: ((جَنَاهَا)) دَلَالَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى أَنَّهُ قَدْ حَازَ الْفَضْلَ الْعَظِيمَ، فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ بَلُوغَ الْجَنَّةِ غَايَةَ الْمُؤْمِنِينَ، وَدَخُولَهُمْ فِيهَا بِفَضْلِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ الْأَعْمَالَ سَبَبًا فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، كَمَا بَيَّنْتُ نَصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ الصَّحِيحَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَكُلُّ هَذَا بِفَضْلِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ، قَالُوا: وَلَا أَنْتَ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: وَلَا أَنَا، وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ)).

فَالْمَقْصُودُ: أَنَّ قَوْلَهُ: ((فَهُوَ فِي حُرْفَةِ الْجَنَّةِ)) أَيُّ كَأَنَّهُ يَجْنِي مِنْ هَذَا الْعَمَلِ الصَّالِحِ عَظِيمِ الثَّوَابِ مِنَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ أَنَّ مَنْ يَعُودُ الْمَرِيضَ فِي حُرْفَةِ الْجَنَّةِ. تَأْمَلْ -رَحِمَكَ اللَّهُ- إِذَا كَانَ الَّذِي يَعُودُ الْمَرِيضَ فِي حُرْفَةِ الْجَنَّةِ، فَمَا بِالْكَ بِالْمَرِيضِ؟!

فَوَاللَّهِ لَقَدْ وَقَعَ هَذَا فِي نَفْسِي مِنْذُ أَنْ قَرَأْتُ هَذَا الْحَدِيثَ، فَوَجَدْتُ أَنَّهُ مَا مِنْ مَرِيضٍ تَذَكَّرُهُ بِهَذَا الْحَدِيثِ إِلَّا اعْتَبَرَ، إِذَا كَانَ الَّذِي يَعُودُهُ فِي حُرْفَةِ الْجَنَّةِ فَمَا بِالْكَ بِالشَّخْصِ نَفْسِهِ؟! وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الدُّنْيَا مَهْمَا ضَاقَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِ، وَمَهْمَا رَأَى فِيهَا مِنَ النُّكَدِ وَالتَّعَبِ وَالْوَصْبِ وَالنَّصَبِ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَزَّى بِفَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَإِنَّ اللَّهَ يَرْحَمُهُ، وَاللَّهُ سَيَعُوضُهُ مِنْ هَذَا الْعِنَاءِ وَالشَّقَاءِ وَالتَّعَبِ وَالنَّصَبِ مَا لَمْ يَخْطُرْ لَهُ عَلَى بَالٍ مِنْ فَضْلِهِ وَكَرَمِهِ وَمَنِّهِ:

لَنَا مَلِيكَ مُحْسِنٌ إِلَيْنَا مَنْ نَحْنُ لَوْلَا فَضْلُهُ عَلَيْنَا

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى فَضْلِهِ، الْمَرِيضُ الَّذِي يُعَادُ جَعَلَهُ اللَّهُ خَيْرًا عَلَى مَنْ يَعُودُهُ، وَجَعَلَ الْخَيْرَ لِهَذَا الْمَرِيضِ الَّذِي يُعَادُ، وَلِذَلِكَ كَمْ مِنْ مَرِيضٍ إِذَا أَصَابَهُ الْمَرَضُ وَجَدَ خَاصَةً إِذَا أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَاسْتَشْعَرَ عَظِيمَ الثَّوَابِ مِنَ اللَّهِ تَجَدَّدَ عِنْدَهُ مِنَ الطَّمَأْنِينَةِ وَانْشَرَحَ الصَّدْرُ، حَتَّى كَانَ بَعْضُ أُمَّةِ السَّلَفِ يَقُولُونَ: إِنَّهُمْ يَجِدُونَ فِي الْبَلَاءِ مِنَ الرَّاحَةِ مَا يَتَأَسَّفُونَ عَلَى فِرَاقِهِ بَعْدَ زَوَالِ الْبَلَاءِ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ نَهَى عَنْ تَمَيُّ الْإِنْسَانِ لِلْبَلَاءِ؛ لِأَنَّ الْبَلَاءَ قَدْ لَا يَطِيقُهُ الْإِنْسَانُ، كَمَا ثَبَتَ فِي السَّنَةِ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلِذَلِكَ كَرِهَ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَمَتَّى لِقَاءَ الْعَدُوِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَتَمَتَّى فِيهَا الْبَلَاءُ، وَلَوْلَا ذَلِكَ قَالُوا: لَتَمْنِينًا أَنْ نَعُودَ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ.

وَهَذَا فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ عَظِيمٌ، وَهَذَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، مِنْ دَلَائِلِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ أَنَّكَ تَجَدَّدُ أَثَرَ التَّوْحِيدِ، وَأَثَرَ الطَّاعَةِ بِفَضْلِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي تُزَلْزَلُ فِيهَا الْأَقْدَامُ، وَتَلْجُلُجُ فِيهَا الْأَلْسِنَةُ -وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ- تَظَلُّمٌ فِيهَا الْقُلُوبُ، وَيَتَخَبَّطُ فِيهَا الشَّيْطَانُ أَوْلِيَاءَهُ -نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ وَالسَّلَامَةَ-، لَكِنَّ الْمُؤْمِنَ مَطْمَئِنُّ الْقَلْبِ، رَاضِيًا وَمُحْسِنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-. فَبَيَّنَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- فَضْلَ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَأَخَذَ مِنْ هَذَا بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا عَادَ الْمَرِيضُ، النَّاسُ فِي عِيَادَةِ الْمَرِيضِ عَلَى مَرَاتِبٍ: أَعْلَاهَا وَأَفْضَلُهَا أَنَّكَ إِذَا زَرْتَهُ أَصَبْتَ السَّنَةَ وَهَدَى النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي زِيَارَتِكَ، فَهَذَا أَفْضَلُ مَا يَكُونُ.

وَأَوَّلُ مَا يَبْدُو الْإِنْسَانُ فِي اتِّبَاعِ هَدْيِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: تَصْبِيرُ الْمَصَابِ، وَلِذَلِكَ كَانَ يَقُولُ: ((لَا بَأْسَ، طَهْوَرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ))، وَكَانَ يَسْلِي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- الْمَصَابَ وَيُوَاسِيهِ، وَكَانَتْ كَلِمَاتُهُ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- شِفَاءً لِلْقُلُوبِ، وَدَوَاءً لَهَا، أَنْ يُذَكِّرَ الْعَبْدَ بِرَبِّهِ، تَذَكُّرُ الْمَرِيضِ بِاللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَبِعَظِيمِ مَا عِنْدَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- وَتَذَكُّرُهُ بِالْأَصْلِ الْأَصِيلِ فِي الْإِيمَانِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حُلُوهُ وَمُرِّهِ، وَأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَقَادِيرَ، وَأَنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ لِلْمُسْلِمِ مَا فِيهِ الْخَيْرُ، وَتَذَكُّرُ لَهُ النُّصُوصِ فِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ الَّتِي تَثْبُتُ، كَقَوْلِهِ فِيمَا مَضَى فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: ((مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ))، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ. الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنْ تَدْعُوهُ إِلَى الصَّبْرِ.

أَوَّلًا: أَنْ تَبَيِّنَ لَهُ أَنَّ هَذَا مِنَ اللَّهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

الْأَمْرُ الثَّانِي: أَنْ تَحْسِنَ ظَنَّهُ بِاللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، خَاصَّةً إِذَا كَانَ الْمَرَضُ مَخُوفًا، وَمَرَضُ الْمَوْتِ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ فِيمَا صَحَّ عَنْهُ: ((لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ -عَزَّ

وَجَلَّ-)).

والأمر الثالث: أن تأخذ بالسنة، فإذا أمكنك أن ترقيه، كما ورد عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنه رُبَّمَا عَادَ الْمَرِيضَ فَرَقَاهُ -صَلَّوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وهذا داخل في الأصل العام الذي نَبَّهَ عليه حينما سُئِلَ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: ((مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَنْفَعَ أَخَاهُ فَلْيَفْعَلْ)) فهذا مِنَ الإحسانِ بالمسلم، ومن تفريجِ كربِهِ، ولعلَّ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- أن يوفِّقَكَ لاتباعِ السنةِ فترقيه بِمَا وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما في حديثِ عائشة: ((أَذْهَبِ الْبَأْسَ، رَبَّ النَّاسِ))، وكما في حديثِ الصحيح: ((أَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، أَنْ يَشْفِيكَ، سَبْعًا))، ونحو ذلك بِمَا وَرَدَ وَثَبَتْ، فلعلَّ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- أن يوفِّقَكَ فتصيبَ بابًا في السماءِ مفتوحًا، فيُكْتَتَبَ لَكَ أَجْرُ إِزَالَةِ هَذَا الْبَلَاءِ عَنْ أَخِيكَ الْمُسْلِمِ، فتؤجِّرُ على ذلك، ثُمَّ إِنَّهُ رُبَّمَا يَتَعَلَّمُ مِنْكَ الْغَيْرُ، خاصةً إذا كُنْتَ مِنَ طَلَبَةِ الْعِلْمِ وَمَنْ يُقْتَدَى بِهِمْ كَأَتَمَةِ الْمَسَاجِدِ وَبَعْضِ طَلَبَةِ الْعِلْمِ، فهؤلاءِ حَرِيٌّ بِهِمْ إِذَا عَادُوا الْمَرْضَى أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِالسُّنَنِ وَالْأَثَارِ، وَلَا عَلَيْهِمْ مِنَ النَّاسِ، يَذْكُرُوا بِهَدْيِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَسُنَّتِهِ حَتَّى يُحْيُوا هَذِهِ السُّنَنَ، وَيَكُونُ لَهُمْ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمَلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

والأمر الرابع: أن تعتبرَ في خاصةِ نَفْسِكَ، وتستفيدَ كما ذكرنا مِنْ هَذِهِ النِّقَمِ وَالْبَلَايَا الَّتِي تَحُلُّ بِغَيْرِكَ، فَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، وَأَسْعَدُ النَّاسِ مَنْ رَزَقَهُ اللهُ قَلْبًا يَتَعَطَّ بِهٍ مِنَ الْمَصَائِبِ الَّتِي تَنْزِلُ بِغَيْرِهِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، فَيَتَعَطَّ وَيَعْتَبِرُ.

الأمر الخامس: أَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْأَصْلَحِ لِلْمَرِيضِ، فَإِذَا وَجَدَ أَنَّ الْأَصْلَحَ أَنْ يَطِيلَ الْجُلُوسَ عِنْدَهُ، وَأَنَّ الْمَرِيضَ أَنْسَ بِهِ فَلَا يَقْطَعُهُ مِنْ خَيْرِهِ، وَإِذَا وَجَدَ أَنَّ ذَلِكَ فِيهِ ثَقَلًا عَلَى الْمَرِيضِ وَأَهْلِ الْمَرِيضِ فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يُخَفِّفُ مِنْ عِيَادَتِهِ، وَيُخَفِّفُ مِنْ زيارَتِهِ.

وعلى كُلِّ حالٍ، لَا شَكَّ أَنَّ عِيَادَةَ الْمَرْضَى يَنَالُ بِهَا الْإِنْسَانُ هَذَا الْفَضْلَ الْعَظِيمَ عَلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ بِاتِّبَاعِ السُّنَةِ وَهَدْيِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَإِذَا وُفِّقَ وَكَانَ مُتَحَرِّيًا لَهَا، مُخْلِصًا لَوَجْهِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَلَا شَكَّ أَنَّهُ بِخَيْرِ الْمَنَازِلِ عِنْدَ اللهِ بِهَذَا الْفَضْلِ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ هَذَا الْحَدِيثُ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: وَرَوَى أَبُو غَفَارٍ وَعَاصِمُ الْأَحْوَلُ هَذَا الْحَدِيثَ، عَنْ أَبِي قَلَابَةَ، عَنْ أَبِي الْأَشْعَثِ عَنْ أَسْمَاءَ، عَنْ ثَوْبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَحْوَهُ. قَالَ: وَسَمِعْتُ مُحَمَّدًا يَقُولُ: مَنْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ أَبِي الْأَشْعَثِ، عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ فَهُوَ أَصْحَحُ، قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَحَادِيثُ أَبِي قَلَابَةَ إِنَّمَا هِيَ عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ إِلَّا هَذَا الْحَدِيثَ، وَهُوَ عِنْدِي عَنْ أَبِي الْأَشْعَثِ عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ.

الشَّح:

هَذِهِ أَوْجُهُ الْاِخْتِلَافِ فِي سَنَدِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَ-إِنْ شَاءَ اللَّهُ- كَمَا وَعَدْنَا أَنَّهُ سَيَكُونُ الْحَدِيثُ عَلَيْهَا بَعْدَ تِمَامِ الْكِتَابِ مَعَ (كِتَابِ الْعِلَلِ).

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْوَزِيرِ الْوَاسِطِيُّ حَدَّثَنَا يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ، عَنْ عَاصِمِ الْأَحْوَلِ عَنْ أَبِي قَلَابَةَ، عَنْ أَبِي الْأَشْعَثِ، عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ، عَنْ ثَوْبَانَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَحْوَهُ، وَزَادَ فِيهِ: ((قِيلَ: مَا خُرْفَةُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: جَنَاهَا)).

الشَّح:

هَذَا مِنْ تَفْسِيرِ السَّنَةِ بِالسَّنَةِ، فَبَعْضُ الرِّوَايَاتِ تُجْمَلُ، وَبَعْضُ الرِّوَايَاتِ تُبَيَّنُ، وَبَعْضُ الْأَلْفَاظِ تَأْتِي مُجْمَلَةً، وَبَعْضُ الْأَلْفَاظِ تَأْتِي مَفْصَلَةً، فَفَسَّرَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خُرْفَةَ الْجَنَّةِ بِأَنَّهُ جَنَاهَا.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الضَّيِّ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ، عَنْ أَيُّوبَ، عَنْ أَبِي قَلَابَةَ عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ، عَنْ ثوبانَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَحْوَ حَدِيثِ خَالِدٍ، وَلَمْ يَذْكُرْ فِيهِ: (عَنْ أَبِي الْأَشْعَثِ).

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَرَوَاهُ بَعْضُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ، وَلَمْ يَرْفَعْهُ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى-: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنِيعٍ حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ ثَوِيرٍ (وَهُوَ ابْنُ أَبِي فَاخْتَةَ)، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَخَذَ عَلِيٌّ بِيَدِي، فَقَالَ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى الْحُسَيْنِ نَعُودُهُ فَوَجَدْنَا عِنْدَهُ أَبَا مُوسَى، فَقَالَ عَلِيٌّ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: أَعَايِدًا جِئْتَ يَا أَبَا مُوسَى أَمْ زَائِرًا؟ فَقَالَ: لَا بَلْ عَايِدًا.

الشَّرْحُ:

عَلِيٌّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، هُوَ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: (عَلِيٌّ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-)، لَكِنَّ بَعْضَ الطَّوَائِفِ يَغْلَوْنَ فِيهِ فَيَقُولُونَ: (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مِنْ دُونِ بَقِيَةِ الصَّحَابَةِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-، وَبَعْضُ النَّسَاجِ فِي الْكُتُبِ أَدْخَلَ بَعْضَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، لَا يُمَيِّزُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنْ بَقِيَةِ الصَّحَابَةِ بِهَذَا اللفظِ، وَإِنَّمَا يُقَالُ لَهُ مَا يُقَالُ لغيرِهِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، هَذَا أَمْرٌ مَهْمٌ جَدًّا.

فَقَالَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أَعَايِدًا جِئْتَ يَا أَبَا مُوسَى أَمْ زَائِرًا؟ فَقَالَ: لَا، بَلْ عَايِدًا، فَقَالَ عَلِيٌّ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: ((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدُوَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ مِنَ الْجَنَّةِ)).

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ وَجْهِ، مِنْهُمْ مَنْ وَقَفَهُ وَلَمْ يَرْفَعْهُ.

وَأَبُو فَاخْتَةَ اسْمُهُ سَعِيدُ بْنُ عِلَاقَةَ.

الشَّرْحُ:

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: ((عَنْ ثَوِيرٍ (وَهُوَ ابْنُ أَبِي فَاخْتَةَ)، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَخَذَ عَلِيٌّ بِيَدِي، فَقَالَ: انْطَلِقْ

بِنَا إِلَى الْحُسَيْنِ نَعُوذُهُ)): هذه اللفظة تدلُّ على أَنَّهُ ينبغي لأصحابِ الفضلِ أَنْ يذكِّروا مَنْ مَعَهُمْ بالخيرِ، فإذا علمتَ أَنَّ هناكَ مريضاً، وَلَمْ يَعْلَمْ أَخوكَ، أو علمَ، تدعوه إلى زيارته، فتقولُ لَهُ: انطلقْ بِنَا نَزُورُ فلاناً، أو نعوذُ فلاناً.

ومنَ الأفضلِ أَنْ تنبههُ في البداية؛ حَتَّى يَحْتَسِبَ وينوي؛ لِأَنَّهُ لو أَخَذَهُ، ثُمَّ ما علمَ بالعبادةِ إِلَّا بعدَ أَنْ وصلَ إلى بيتهِ اختلفَ الحالُ، أمَّا لو كانَ منَ البداية يقولُ لَهُ: إِنَّا نريدُ أَنْ نعوذَ فلاناً، أو نزورَ المقابرَ، أو هَلُمَّ نزورِ القبورَ، ونحو ذلكِ مِمَّا يذكرُ بهِ المسلمُ أخاهُ المسلمَ.

وهذا مِنْ أَجْلِ نِعَمِ اللَّهِ على العبدِ أَنْ يرزقَهُ اللهُ صديقاً أو صاحباً يعينه على طاعةِ اللهِ ومحبةِ اللهِ، هكذا كانَ السلفُ يدعو بعضهم بعضاً إلى زيارةِ العلماءِ والأئمةِ منهم، ولذلكِ كانَ صغارُ الصحابةِ وكبارُ التابعينَ يأخذُ بعضهم بيدَ بعضٍ إلى كبارِ الصحابةِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- مِنْ أَجْلِ أَنْ يسألُوهم ويذاكرُوهم، وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يشهدُوا مجالسَهُم التي كانتَ معمورةً بالخيرِ والذكرِ، فهذا مِنْ أَفْضَلِ مَا يَكُونُ أَنْ يرزقَ اللهُ العبدَ مَنْ يعينه على ذكرِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، مَنْ يقولُ لَهُ: هَلُمَّ إلى الخيرِ.

فدعا عليٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- إلى عيادةِ الحسنِ ابنِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وهذا مِنْ الدعوةِ إلى الخيرِ. ((فَوَجَدْنَا عِنْدَهُ أَبَا مُوسَى)): فوجدنا عندهُ أبا موسى الأشعريُّ الصحابيُّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، وهنا خطأ، ((عَلِيٍّ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-))، ((فَوَجَدْنَا عِنْدَهُ أَبَا مُوسَى)) هكذا مُجرّدةٌ حافيةٌ، ما معناها؟ ولذلكِ بعضُ النُسخِ كما يقولُ بعضُ العلماءِ: دخلوا على أهلِ السنةِ بِمِثْلِ هذهِ الأمورِ، لا يُخَصُّ، وإلا يَجُوزُ أَنْ تقولَ: ((عَلِيٍّ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-، أبو بكرٍ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-))، لَكَ أَنْ تسلمَ ولذلكِ تقولُ في الصلاةِ: ((السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ)) يشرعُ أَنْ تسلمَ على أخيكَ المسلمِ عموماً، وَأَنْ تسلمَ على الصحابةِ خصوصاً، وعلى الأنبياءِ، لكنْ مثلاً ما ذكرنا أَنَّ هذهِ اللفظةَ اصطلاحٌ على أَنَّ الصلاةَ والسَّلَامَ للأنبياءِ، والترحمُ للصحابةِ، والترحمُ لِمَنْ بعدهم، وإلا فيجوزُ أَنْ تترضى عن الأئمةِ الأربعةِ، فتقولُ: (الإمامُ مالكٌ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، الإمامُ الشافعيُّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، الإمامُ أبو حنيفةً -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، الإمامُ أحمدُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-) لا بأسَ في هذا، لكنْ مثلاً ما ذكرنا أَنْ لا يُميَّزَ بِمَا يُظَنُّ أَنَّهُ يقصدُ بهِ تفضيلُهُ على بقيةِ الصحابةِ، كأبي بكرٍ وعمرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، فلا شكَّ أَنَّ عَلِيّاً -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يَجُوزُ التسليمُ عليه، ولا بأسَ بذلكِ، ولا حرجَ، وإِنَّمَا المرادُ لا يُغْلَى في بعضِ الصحابةِ دونَ بعضٍ.

((فَقَالَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: أَعَايِدًا جِئْتَ يَا أَبَا مُوسَى أَمْ زَائِرًا؟)) سؤالٌ منه -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-

لأبي موسى، والأصل يقتضي أَنَّ العبادات والأُمُور التي فيها طاعةٌ أُنْهَا تُخْفَى، لكنَّ يَجُوزُ إظهارُها وبيانُها والحديثُ عنها إذا كَانَ إظهارُها وبيانُها لغرضٍ شرعيٍّ، وهنا سَأَلَ عَلِيٌّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أبا موسى عَنْ نِيَّتِهِ: هل نِيَّتُهُ الزَّيَارَةُ أم العِيَادَةُ؟

كُلًّا مِنَ الزَّيَارَةِ وَالْعِيَادَةِ: تَكُونُ عَادَةً، وَتَكُونُ عِبَادَةً.

الزَّيَارَةُ لِلْمُسْلِمِ تَكُونُ عَادَةً، مِثْلُ: أَنْ يَزُورَ التَّاجِرُ التَّاجِرَ مِنْ أَجْلِ مَصْلَحَةِ التَّجَارَةِ، هَذِهِ عَادَةٌ. وَتَكُونُ عِبَادَةً، مِثْلُ: أَنْ تَزُورَ أَحَدًا لَكَ فِي اللَّهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَسْمَعَ شَيْئًا يَذْكُرُكَ بِاللَّهِ، أَوْ تَسْمَعَهُ شَيْئًا يَذْكُرُهُ بِاللَّهِ، أَوْ تَسْتَعِينَ بِهَذِهِ الزَّيَارَةِ عَلَى مَا يَتَّبِثُكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- مِنْ وَجْهِ الْخَيْرِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا، وَهَذِهِ كَمَا ثَبَتَ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ، كَمَا فِي: ((قِصَّةُ الرَّجُلِ الَّذِي خَرَجَ مِنْ قَرِيْبَتِهِ لَزِيَارَةِ أَخِيهِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ لَهُ مَلَكًا عَلَى مَدْرَجَتِهِ، عَلَى طَرِيقِهِ، فَقَالَ لَهُ: إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ؟ قَالَ: إِلَى قَرْيَةٍ كَذَا، قَالَ: وَمَالُكَ فِيهَا؟ قَالَ: لِي فِيهَا أَخٌ أُرِيدُ أَنْ أَزُورَهُ، قَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرْبُّهَا إِلَيْهِ؟)) هَذِهِ زِيَارَةُ الْعَادَةِ، ((قَالَ: لَا، إِلَّا أَنَّهُ أَخِي فِي اللَّهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَزُورَهُ))، هَذِهِ زِيَارَةُ الْعِبَادَةِ.

فَالزَّيَارَةُ: تَكُونُ عَادَةً، وَتَكُونُ عِبَادَةً، وَهَذَا إِذَا مَرَضَ الْإِنْسَانُ وَزَارَهُ الْغَيْرُ:

إِمَّا أَنْ يَزُورَهُ عَادَةً، يَزُورُهُ عَادَةً بِمَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ أَنَّهُ مَرِيضٌ، فَخَرَجَ لِأَجْلِ أَنْ يَجْلِسَ مَعَهُ وَيَسْتَأْنَسَ بِهِ دُونَ غَرَضٍ شَرْعِيٍّ، فَهَذِهِ عَادَةٌ، وَقَدْ يَزُورُهُ عِبَادَةً.

وَقَوْلُ أَبِي مُوسَى فِي سَوَالِ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فِي هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَ فِيهِ الْمَرْفُوعُ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِي خَاتَمَتِهِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَأَكَّدَ وَجُودَ الشَّرْطِ الَّذِي بَيْنَهُ النَّبِيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لِحَصُولِ فَضْلِ عِيَادَةِ الْمَرِيضِ.

((فَقَالَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: لَا، بَلْ عَائِدًا))، ((لَا)): أَي لَمْ آتِ زَائِرًا، وَإِنَّمَا جِئْتُ عَائِدًا، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَأْتِيَ عَائِدًا إِلَّا إِذَا سَمِعَ أَنَّ الْحَسَنَ مَرِيضٌ، وَأَحَبُّ أَنْ يَعُودَهُ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى فَضْلِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وَحَرَصَ الصَّحَابَةُ عَلَى السَّنَةِ؛ لِأَنَّ عِيَادَةَ الْمَرِيضِ مِنَ السَّنَةِ.

وَنَالِثًا: أَنَّهُ لَمْ يَمْنَعُهُمْ، فَأَبُو مُوسَى بِالنِّسْبَةِ لِلْحَسَنِ، الْحَسَنُ مِنْ صِغَارِ الصَّحَابَةِ، وَأَبُو مُوسَى أَسْنُ مِنْهُ، وَمَعَ هَذَا زَارَ الْحَسَنَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، وَهَذَا هُوَ حَالُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَهْمُ يَقُومُونَ بِالْحَقِّ مِنَ الصَّغِيرِ لِلْكَبِيرِ، وَمِنَ الْكَبِيرِ لِلصَّغِيرِ، فَضَرَبُوا بِذَلِكَ أَفْضَلَ وَأَرْوَعَ الْمَثَلِ لِلأُمَّةِ، وَهُمْ قُدُوةٌ هَذِهِ الأُمَّةِ فِي ذَلِكَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ- وَجَعَلَ أَعَالِي الْفَرْدُوسِ مَسْكَنَهُمْ مِثْوَاهُمْ،

وجزاهم عنا وعن سنة النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خير الجزاء - فبينَ أَنَّهُ جَاءَ عَائِدًا.
وفيه دليلٌ على مشروعية التحدث بالطاعة، وبنية الخير إذا أمنت الفتنة، أو وُجِدَ الغرض الشرعي لَأَنَّهُ
علم أَنَّ عليًا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يريد أَن يبينَ لَهُ سنةً أو هديًا، ولذلك أظهرَ لَهُ عَنْ مَكُونِ قَلْبِهِ مِنْ
قَصَدِ الطاعة والعبادة لله - عَزَّ وَجَلَّ - بالعبادة.

((فَقَالَ عَلِيٌّ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ: مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدُوَّةً
إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ)) الغدوة: وهي في أول النهار، والرواح في آخر النهار،
والفيصل بينهما وسط النهار، فإذا انتصف النهار من طلوع الشمس إلى نصف النهار هذا كله يُقَالُ
لَهُ: (غُدُوٌّ)، ومن منتصف النهار إلى غروب الشمس يُقَالُ لَهُ: (العشي)، ويُقَالُ لَهُ: (الرواح)، وهذا من
بابِ المِقابِلَةِ: (غُدُوَّةٌ، وَعَشِيَّةٌ)، والحديث يبيِّنُ سواءً وقعَ منه في أول النهار أو آخر النهار.
((إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ))، ((صَلَّى)): بِمَعْنَى دَعَا، وَاللَّهُ فَضَّلَ الْمُؤْمِنِينَ
وَأَكْرَمَهُمْ بِكَرَامَتِهِ، فَجَعَلَ الْمَلَائِكَةَ تَصَلِّيَ عَلَيْهِمْ: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ
الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ}، فَالْمَلَائِكَةُ يَصَلُّونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، فَيَسْأَلُونَ اللَّهَ لَهُمُ الْمَغْفِرَةَ وَالرَّحْمَةَ: {فَاغْفِرْ
لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ}، حَتَّى إِنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ يَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَهَذَا
فَضْلٌ عَظِيمٌ يَدُلُّ عَلَى فَضْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ حَمَلَةَ عَرْشِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ
وَالْإِيمَانِ؛ تَشْرِيفًا لَهُمْ وَتَكْرِيمًا.

وتصلي الملائكة على العبد بمعنى أَن تدعو لَهُ، وَقَدْ جَاءَتْ السُّنَّةُ بَيَانًا بَعْضُ صِيغِ الصَّلَاةِ، قَالَ
- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - كَمَا فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: ((فَإِذَا صَلَّى لَمْ
تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ، مَا دَامَ فِي مُصَلَاةٍ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ)) فَبَيْنَ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ
صَلَاةِ الْمَلَائِكَةِ عَلَى الْعَبْدِ أَنَّهَا تَصَلِّي عَلَيْهِ وَتَدْعُو لَهُ.

((حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ مِنَ
الْجَنَّةِ)): هُنَا الْحَدِيثُ فِيهِ جَاءَ بِالْغُدُوَّةِ وَالْعَشِيِّ، الْعَشِيُّ يَطْلُقُ مِنْ مُنْتَصَفِ النَّهَارِ كَمَا ذَكَرْنَا، لَكِنَّهُ
هُنَا فِي الْحَدِيثِ الْمُرَادُ بِهِ: مِنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ إِلَى طُلُوعِهَا، أَيْ أَنَّهُ إِذَا صَلَّى مِنْ طُلُوعِ الشَّمْسِ إِلَى
غُرُوبِهَا فِي النَّهَارِ، إِذَا عَادَ فِي النَّهَارِ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ، وَإِذَا عَادَ فِي اللَّيْلِ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ حَتَّى يُصْبِحَ، إِذَا عَادَ
مِنْ بَعْدِ غُرُوبِ الشَّمْسِ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ إِلَى طُلُوعِهَا، وَإِنْ عَادَ بَعْدَ طُلُوعِهَا صَلَّيْتُ عَلَيْهِ إِلَى غُرُوبِهَا، وَهَذَا
مِنْ بَابِ الْمِقابِلَةِ.

والفضائل: تارة تأتي مطلقة، وتارة تأتي مقيدة.

والتقييد يكون بالزمان، مثل: قوله هنا: ((غُدْوَةٌ، صَلَّتْ عَلَيْهِ حَتَّى يُمْسِيَ))، فهذا من التقيد بالزمان.

وقد تقييد بالفعل نفسه: ((مَا دَامَ فِي مُصَلَاةٍ)) فهذا التقيد بلزوم المكان.

وبناءً على ذلك ما جاء مقيداً من الصلوات والدعوات يتقيد، وما جاء مطلقاً يبقى على إطلاقه. ((وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الْجَنَّةِ)): أي أَنَّ هذه العبادة توجب له عند الله -عَزَّ وَجَلَّ- وثبت له الخريف ثواباً من الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- إِنَّ أَخْلَصَ وَتَقَبَّلَ اللهُ عَمَلَهُ، أي جعل له بها خريقاً، كما تقدم في الحديث السابق عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وهذه الجزئية من الحديث شهد لها الحديث الصحيح، وإلا فالحديث في سنده مقال.

قَالَ الإمام أبو عيسى الترمذي -رَحِمَهُ اللهُ-: [بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنِ التَّمَنِّيِ لِلْمَوْتِ].

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرِّبٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى خُبَّابٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وَقَدْ اِكْتَوَى فِي بَطْنِهِ، فَقَالَ: مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَقِيَ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَقِيتُ، لَقَدْ كُنْتُ وَمَا أَجْدُ دَرَهْمًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَفِي نَاحِيَةٍ مِنْ بَيْتِي أَرْبَعُونَ أَلْفًا، وَلَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نَهَانَا، أَوْ نَهَى أَنْ نَتَمَنَّى الْمَوْتَ لَتَمَنَيْتُ.

وَقَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: وَفِي الْبَابِ عَنْ أَنَسٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَجَابِرٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جَمِيعًا-.

قَالَ -رَحِمَهُ اللهُ-: حَدِيثُ خُبَّابٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

الشَّرْحُ:

يقول المصنف -رَحِمَهُ اللهُ-: [بَابُ مَا جَاءَ فِي النَّهْيِ عَنِ التَّمَنِّيِ لِلْمَوْتِ] أي في هذا الموضع سأذكر لك ما وردَ عن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من سنته وهديه [مِنَ النَّهْيِ عَنِ تَمَنِّيِ] أي طلب الموت أي أَنْ يَمُوتَ الإنسان.

وهذا الباب مناسبتُهُ لبَابِ الْجَنَائِزِ: ظاهرة؛ لأنَّ الإنسانَ إذا نَزَلَ بِهِ الْمَرَضُ، وَأَصِيبَ فِي جَسَدِهِ فَإِنَّهُ رُبَّمَا تَضِيقُ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَقَدْ يَتَسَلَطُ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ فَيَتَمَنَّى الْمَوْتَ، وَيَتَمَنَّى أَنْ يَهْلِكَ، وَهَذَا يَسْمَعُهُ

الإنسان خاصةً من الجهَّال والعوام، يسمعه كثيرًا، فجاءت السنة عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالنهي عن تَمَيُّي الموت، ولذلك اعتنى الأئمة -رَحِمَهُمُ اللَّهُ- ببيان هذه السنة، والتحذير من الأمر المخالف لهدى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وهذا الأمر الذي لا ينبغي للمؤمن الموحِّد أن يأتيه؛ لأنَّه يُخَالِفُ التسليم والرضا بالقضاء والقدر المسلم ينبغي عليه أن يكون قويًّا في إسلامه والتزامه، واستسلامه لأمر الله -عَزَّ وَجَلَّ- وانقياده له وينبغي أن يكون قويًّا في إيمانه وإذعانه؛ لأنَّه يعلم أن قوة الإيمان أحبُّ إلى الله من ضعفه، كما قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ)) والمراد بالقوة هنا قوة الإيمان، وليس المراد بها ما يظنُّه البعض من الرياضة وبناء الأجسام، هذا خطأ، وليس بصحيح المراد هنا قوة الإيمان ولو كان مشلولاً، فإنَّه المراد بقوله: ((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ)).

أمَّا أن يكون ضخَمَ الجسم، معتنياً ببناء جسمه، مضيقاً لروحه، ولربَّما يكون منافقاً وكافراً كما قال تعالى فيمن سَمَّى وهم المنافقون: {وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهمْ خُشْبٌ مُسْنَدَةٌ}. المراد ببناء الأرواح بقوة الروح، فالمؤمن القويُّ إذا نزل به البلاء يتقوى إيمانه.

ومن دلائل حبِّ الله للعبد أنَّه إذا نزل به البلاء، وأردت أن ترى عينك المؤمن الصادق في إيمانه فانظر إليه في البلاء، فإنَّه يزيده قوةً ويقينا بالله أشدَّ ممَّا لو لم يصب، كما حكى الله عن سلف هذه الأمة من الصحابة: {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَخْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا}.

فإذا تَمَّتِ الموت فإنَّ هذا من الضعف والخور، ولذلك نُهي عن تَمَيُّي الموت والاستعجال لأمر الله -عَزَّ وَجَلَّ-، لا ينبغي للمسلم أن يستعجل أمر الله -عَزَّ وَجَلَّ-، عليه أن يرضى، فإنَّ مدَّ الله في عمره حمد الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، واستعان بما أعطاه من طول العمر في طاعته، وإن كتب الله له أن يصاب بمرض يُعَجِّلُ به أجله، يرضى ويسلم، لا يقول: أريد أن يطول عمري، فلماذا أموت؟ أريد أن أبقى لأولادي وذريتي، أو لأهلي ولعالي، فهذا لا يجوز أن الإنسان يعترض على قضاء الله وقدره، يأتيه الطبيب ويقول: هذا المرض غالباً لا يعيش -بالسنن والاستقراء والتبعية- صاحبه إلا شهراً أو شهرين، فيقول: أريد أن أبقى لعالي، ما أريد أن أموت، هذا لا يقوله المؤمن، المؤمن

يقول: (الحمد لله على كلِّ حالٍ، ونعوذ بالله من حالِ أهلِ النارِ، أسأَلُ اللهَ -عَزَّ وَجَلَّ- أَنْ يَخْتَارَ مَا فِيهِ الْخَيْرُ، والحمد لله الذي أمدَّ في أعمارِنَا، وأعطانا من هذا الخيرِ، نسألهُ أَنْ يتجاوزَ عَنَّا)، ويقولُ خَيْرًا يرضي اللهَ عنه؛ لأنَّ هذه الأمورَ ليست فيها حيلةٌ، لا يستطيع الإنسانُ أَنْ يقدِّمَ ما أخره اللهُ، بل لا يستطيع الخلقُ كلُّهم أَنْ يقدموا ما أخره اللهُ، وأن يؤخروا ما قدمه اللهُ، نزل الموتُ بالملوكِ والجبابةِ والعظماءِ، فكانوا أذلَّ ما يكونون أمامَ عظمةِ الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: {وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ}، لا يستطيع ولو كان أصلحَ عبدٍ أَنْ يقدمَ ما أخره اللهُ، أو يؤخِّرَ ما قدمه اللهُ، ولذلك ضربَ اللهَ المثلَ بأحابيه وأوليائه، وهم أنبيأؤه، فكان الواحدُ منهم يدخلُ على ابنه وفلذةِ كبده ونفسه تقعقعُ وهو يريدُ الموتَ، إبراهيمُ ابنُ النبيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإنَّ النبيَّ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- رأى الموتَ في ابنه، فما استطاعَ أَنْ يؤخِّرَ أَمْرَ اللهِ ثَانِيَةً ولا أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ، ولم يقلْ إِلَّا خَيْرًا: ((إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ)) مصابَّ وبلاءً، فجاءَ على أكملِ الهدى، هديه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- على أكملِ الهدى، لم يعلمِ الأمةُ إِلَّا كلَّ خَيْرٍ، فنهاها عن التجردِ عن الإيمانِ والتسليمِ، وردَّ الأمرَ إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-، -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وبَيَّنَّ أَنَّ الْمُؤْمِنَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مَا يَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى اللهُ -جَلَّ جَلَالُهُ-.

فَالْمَقْصُودُ: أَنَّ تَمَنِّيَ الْمَوْتِ فِيهِ تَسَخُّطٌ عَلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، وَجَزَعٌ لَا يَلِيْقُ بِالْمُسْلِمِ، وَلِذَلِكَ نَهَى النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِحُزْنٍ نَزَلَ بِهِ، فَإِنْ كَانَ وَلَا بُدَّ قَائِلًا فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَأَمْتِنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي))، هذه هي السنةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

أَمَّا أَنْ يَعْتَرِضَ الْإِنْسَانُ، ويقول: رَبِّ افْعَلْ بِي وَخُذْنِي. المرأةُ تَجْزَعُ مِنْ أَوْلَادِهَا، ثُمَّ تَنَادِي رَبَّهَا أَنْ رَبَّهَا يَهْلِكُهَا، أَنْ رَبَّهَا يُمَيِّتَهَا، كيفَ يَكُونُ وَقَعُ هَذَا عَلَى أَبْنَائِهَا؟! لِأَنَّ هَذَا تَسَخُّطٌ عَلَى الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ. والأبُّ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ الدِّيُونُ، وَأَحَاطَتْهُ بِهِ الْهُمُومُ أَخَذَ يَصِيحُ، وَأَخَذَ يَتَذَمَّرُ وَيَتَسَخَّطُ، فهِذَا كُلُّهُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَّبَعَ السَّنَةَ، وَأَنْ يَتَحَرَّى هَدْيَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَمَنْ رَأَاهُ يَقُولُ ذَلِكَ يَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَذَكِّرُهُ أَنَّ هَذِهِ الْأُمُورَ لَا يَمْلِكُ الْإِنْسَانُ فِيهَا إِلَّا التَّسْلِيمَ وَالرِّضَا، وَأَنَّهُ إِذَا سَلِمَ وَرَضِيَ بِمَا كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ جَمَعَ اللهُ لَهُ بَيْنَ الْحُسْنَيْنَيْنِ: الْأَجْرَ، وَحُسْنَ الْعَاقِبَةِ، وَأَنَّهُ إِذَا تَسَخَّطَ وَتَذَمَّرَ، وَسَأَلَ اللهُ الْمَوْتَ وَجَزَعًا، فَإِنَّهُ يَجْلِبُ عَلَى نَفْسِهِ الْمَصِيبَتَيْنِ: مَا هُوَ

فِيهِ مِنَ الْبَلَاءِ، وَيُؤَاخِذُ عَلَى تَسْخِطِهِ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - عَلَى قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ.
وَالْمَقْصُودُ أَنَّ تَمَيُّ الْمَوْتِ بِمَعْنَى أَنْ يَطْلُبَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَمِيتَهُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ -
وَالْتَمَيُّ فِي الْأَصْلِ يَكُونُ فِي الشَّيْءِ الَّذِي لَا يَقَعُ، أَوْ الْمُسْتَحِيلِ - كَمَا يَقُولُونَ - يَتَمَيُّ الْمُسْتَحِيلُ
فَيَتَمَيُّ عَوْدَ الشَّبَابِ:

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

يَتَمَيُّ الْمُسْتَحِيلُ، التَّمَيُّ يَكُونُ فِي الْمُسْتَحِيلِ، وَلِذَلِكَ كَرِهَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنْ يَقُولَ الشَّخْصُ:
(لَيْتَهُ يَحْصُلُ كَذَا وَكَذَا)، بِمَعْنَى أَنَّهُ يَقْصِدُ الدَّعَاءَ، لَا يَقُولُهُ، وَإِنَّمَا يَقُولُ: (اللَّهُمَّ، إِنْ كَانَ الْخَيْرُ فَلْيَكُنْ كَذَا
وَكَذَا)، فَيَسْأَلُ اللَّهَ إِنْ كَانَ فِيهِ خَيْرٌ أَنْ يَحْصُلَ، لَكِنْ أَنْ يَجْعَلَهُ أَمْنِيَّةً، وَأَنْ يَجْعَلَهُ بِهَذِهِ الصِّيغَةِ، كَرِهَ بَعْضُ
الْعُلَمَاءِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ فِي الْأَشْيَاءِ الْمُسْتَحِيلَةِ، وَلَا يَسْتَحِيلُ عَلَى اللَّهِ شَيْءٌ، إِنْ اللَّهُ لَا يَعْجُزُهُ شَيْءٌ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ.

وَتَمَيُّ الْمَوْتِ اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - عَلَى أَنَّ أَقْلَ دَرَجَاتِهِ الْكَرَاهَةُ.
وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ تَمَيُّ الْمَوْتِ مُحَرَّمٌ، أَخْذًا لِلنَّهْيِ عَلَى ظَاهِرِهِ: ((لَا يَتَمَتَّيَنَّ))؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَهَى عَنْهُ بِصِيغَةِ التَّوَكِيدِ.

قَالَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: ((عَنْ حَارِثَةَ بْنِ مُضَرِّبٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى خَبَّابٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَدْ اِكْتَوَى
فِي بَطْنِهِ))، ((دَخَلْتُ عَلَى خَبَّابٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -)): خَبَابُ بْنُ الْأَرْتِ الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ، وَمِنْ
السَّابِقِينَ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ الذِّينَ أُوذُوا فِي اللَّهِ - جَلَّ جَلَالُهُ -، فَصَبَرُوا وَاحْتَسَبُوا.

((دَخَلْتُ عَلَى خَبَّابٍ وَقَدْ اِكْتَوَى فِي بَطْنِهِ)): وَالْحَالُ أَنَّهُ قَدْ اِكْتَوَى فِي بَطْنِهِ، فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى
مَشْرُوعِيَةِ الْكِيِّ، وَأَنَّ الصَّحَابَةَ عَمِلُوا بِهِ، أَيْ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَنْسُوخٍ؛ لِأَنَّهُ وَرَدَتْ عَنْ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ - السُّنَنُ بِجَوَازِ الْكِيِّ، وَقَالَ: ((إِنْ يَكُنِ الشِّفَاءُ فِي أَرْبَعَةٍ: فِي آيَةٍ مِنْ كِتَابٍ، أَوْ شَرْطَةٍ مِنْ
مُحْجَمٍ، أَوْ لَعْقَةٍ مِنْ عَسَلٍ، أَوْ كَيْيَةٍ مِنْ نَارٍ، وَلَا أُحِبُّ أَنْ اِكْتَوِيَ)).

وَكَانَتْ بِعِمْرَانَ بَوَاسِئِرُ، وَكَانَتْ تَسْلُمُ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، وَلَمَّا اِكْتَوَى انْقَطَعَ تَسْلِيمُهُمْ، فَتَرَكَ الْكِيَّ فَعَادَ
التَّسْلِيمُ عَلَيْهِ.

فَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْكِيَّ مَكْرُوهٌ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ، بِمَعْنَى أَنْ يَعْجَلَ بِهِ الْإِنْسَانُ، وَإِنَّمَا يَجْعَلُهُ آخِرَ الْعِلَاجِ
الْعِلَاجُ بِالْكِيِّ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ سُنَّةٌ، وَسَيِّئَاتِي - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - بَيَّانُهُ فِي (أَبْوَابِ الطِّبِّ)، وَهُوَ آخِرُ
الْعِلَاجِ.

والعجيب أن بعض الأطباء له في قوله -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: ((إِنَّ آخِرَ الشِّفَاءِ الْكَيُّ)) نكتٌ لطيفةٌ تدلُّ على أنه يفيد، ولكنَّه يفيدُ بطريقةٍ عجيبةٍ غريبةٍ، حتَّى في بعضِ الأمورِ المستعصية، وهذا ذكره لنا بعضُ المختصينَ في التشريحِ عندما كُنَّا في إعدادِ رسالةِ الدكتوراة، أتهمُ يقولون: إنَّ الآلامَ تنقلُ بواسطةِ العصبِ، وأنَّ الكيَّ يَشْغَلُ العصبَ عن موضعِ الألمِ؛ لأنَّ هناكَ آلامٌ مثلُ ما يقولونَ يصرُّ العصبُ على نقلِها ولو كانَ الموضعُ قد شُفي وبرئ، فيبقى مثلُ المداومةِ على نقلِ الألمِ، فننقلُ إلى أعصابِ الدماغِ، فيتأثرُ الإنسانُ ويتألمُ، فإذا اكتوى نُقلتِ هذهِ الأعصابُ التي هي في أصلِ طبيعةِ الخلقة، أمَّا تنقلُ الألمِ، فجاءها ألمٌ جديدٌ يشغلُها عن ألمِها الأولِ، فتشتغلُ بهذا الألمِ عن ألمِها الأولِ، وكانَ منَ كبارِ أطباءِ التشريحِ، وكانَ يقولُ لي: أتعجبُ منَ هذا الحديثِ عن رسولِ الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقولُ: أتعجبُ كثيرًا؛ لأنَّه فعلاً فيه طريقةٌ غريبةٌ، حتَّى عندهم نوعٌ منَ المَرَضِ وليسَ بمرَضٍ يُقالُ له: (الألمُ المُعَدِّد) الذي يعني أصبحَ عنيداً، لا تنفعُ فيه الأدويةُ، علاجهُ الكيُّ، فإنَّه إذا اكتوى نَقَلَ مثلُ ما ذكرنا.

وهذا كُلُّه جاءَ بهِ الصادقُ المصدوقُ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ على قلبِهِ -صَلَّواتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- فما ينطقُ عن الهوى.

فاكتوى -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-، هذا يدلُّ على مشروعيةِ الكيِّ وجوازِهِ.

((فَقَالَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَقِيَ مِنَ الْبَلَاءِ مَا لَقِيتُ)) هذا ليسَ المرادُ بهِ أنْ يفضَّلَ نفسُهُ على بقيةِ الصحابةِ، ولكنَّه في التنوعِ، أي أنَّه يصابُ كلُّ واحدٍ منهمُ بالبلاءِ العظيمِ، لكنَّهُ في خاصَّتِهِ، فمنهمُ منِ أُبْتُليَ بالبلاءِ العظيمِ في مالِهِ، ومنهمُ منِ أُبْتُليَ بالبلاءِ العظيمِ في أهلهِ، ومنهمُ منِ أُبْتُليَ البلاءَ العظيمَ في جسدهِ، ومنهمُ منِ أُبْتُليَ البلاءَ العظيمَ في تعذيبِ المشركينَ لَهُ، فهذا منَ التنوعِ، ولذلكَ جاءتِ مناقِبُ الصحابةِ مُختلفَةً.

ومنَ هنا لا يُستدلُّ بهذا الحديثِ على أنَّه أفضلُ منَ أبي بكرٍ وعُمَرَ وبقيةِ الصحابةِ الذينَ أُودُوا في ذاتِ اللهِ، ولا يُقالُ بأنَّه يعتقَدُ ذلكَ أنَّه لمَ يصبَ أحدٌ بمثلِ ما أُصيبَ بهِ منَ بلاءٍ فهوَ أفضلُ، لمَ يَرِدْ ذلكَ، وإمَّا هوَ في التنوعِ، أنَّه يصيبُهُ نوعٌ منَ البلاءِ لا يعلمُهُ لغيرِهِ، فحينئذٍ هوَ يتحدثُ بما نَزَلَ بِهِ منَ البلاءِ، وفي هذا نوعٌ تزكيةٍ، وتزكيةُ الإنسانِ لنفسِهِ إذا كانتَ لغرضٍ شرعيٍّ فإنَّه لا بأسَ بِها ولا حرجٍ، وهذا مأثورٌ عنِ الصحابةِ؛ لأنَّ مَنْ كانَ في حالِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- حالَ المَرَضِ، وكذلكَ ما عُرِفَ منهمُ إخلاصُهُم وصدقُهُم، فهُم بِإِذْنِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- نَحْسِبُهُم أبعَدَ عنِ الرياءِ، يتحدثونَ بذلكَ مَنْ

باب القدوة الحسنة لغيرهم، فيجوز للمسلم أن يقول: (والله لقد مرت علي أيام عصيبة يا بُني، كُنَّا في الجوع، وكُنَّا في الضيق، وكُنَّا في الخوف، وكُنَّا في الشدة، وابتلانا الله -عَزَّ وَجَلَّ- بكذا وكذا) هذا من بابِ التحدث بنعم الله -عَزَّ وَجَلَّ- على العبدِ أَنَّهُ أُبْتُلِيَ في ذاتِ الله -عَزَّ وَجَلَّ-. ومنهُ ما ثبت في صحيح البخاري وغيره عن أبي أسيد السَّاعِدِيِّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-: أَنَّهُ قَالَ: ((لَا أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ بِمَنْبَرِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنِّي)) الحديث المشهور، فَإِنَّهُ زَكَّى نَفْسَهُ أَنَّهُ أَعْلَمُ.

((لَقَدْ كُنْتُ مَا أَجِدُ دِرْهَمًا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-)) كَانَ الصَّحَابَةُ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- قَدْ ابْتَلَاهُمُ اللهُ بِضِيقِ الْحَالِ، فَلَيْسَ عِنْدَهُمُ الْأَمْوَالُ الْكَثِيرَةُ، وَمَا أُصِيبُوا بِهِ مِنْ ضِيقِ الْعِيشِ وَشُظْفِهِ وَنَكْدِهِ سَلَوَى لِكُلِّ مُؤْمِنٍ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَقْرَأَ سِيرَةَ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَّا وَجَدْتَ ذَلِكَ ظَاهِرًا جَلِيًّا، وَمَنْ أُعْطِيَ نِعْمَةَ الْمَالِ وَهُمْ قَلَّةٌ سَحَرُوا ذَلِكَ الْمَالِ فِي طَاعَةِ اللهِ، فَأَنْفَقُوهُ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ-، وَفِي تَفْرِيجِ كِرْبَاتِ إِخْوَانِهِمُ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا أَثَرُ عَنْ أَغْنِيَاءِ الصَّحَابَةِ، كَأَبِي بَكْرٍ وَعُثْمَانُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ- وَنَحْوِهِمْ مِنْ أَغْنِيَاءِ الصَّحَابَةِ، وَلِذَلِكَ قَالَ اللهُ فِي أَبِي بَكْرٍ: {وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَتَقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى} فَأَغْنِيَاهُمْ أَنْفَقُوا أَمْوَالَهُمْ فِي طَاعَةِ اللهِ وَحُبِّهِ، وَفَقَرَاؤُهُمْ صَبَرُوا عَلَى مَا أُودُوا، وَلِذَلِكَ كَانَ فِيهِمْ الْفُقَرَاءُ، وَكَانَ فِيهِمُ الْأَغْنِيَاءُ، كَمَا فِي الصَّحِيحِ: ((جَاءَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَقَالُوا: ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ)).

فَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الْأَغْلَبَ كَانُوا فُقَرَاءً، خَاصَّةً عِنْدَمَا كَانُوا فِي مَكَّةَ، كَانَ حَالُهُمْ عَلَى الْعُسْرِ وَالشَّدَةِ وَالضِّيقِ، وَقَدْ صَبَرُوا، حَتَّى فِي الْمَدِينَةِ كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَرْبُطُ عَلَى بَطْنِهِ الْحَجَرَ وَالْحَجَرَيْنِ -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَيَمُرُّ الشَّهْرُ وَالشَّهْرَانِ وَلَا يُوقَدُ فِي بَيْتِهِ نَارٌ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَهَذَا الضِّيقُ فِي الدُّنْيَا وَسَعَةُ اللهِ بِالْآخِرَةِ، فَكَانَتْ أَيْدِيهِمْ فَقِيرَةً، وَأَحْوَالُهُمْ شَدِيدَةً وَلَكِنَّ اللهَ أَغْنَاهُمْ بِالْإِيمَانِ بِهِ، وَالتَّسْلِيمِ وَالرَّضَا، فَزَوَى اللهُ عَنْهُمْ الدُّنْيَا، فَكَانُوا أَغْنَى مَا يَكُونُونَ بِاللَّهِ وَأَفْقَرُ مَا يَكُونُونَ إِلَى اللهِ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَتَبَةُ بْنُ غَزْوَانَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ-:

((وَلَقَدْ رَأَيْتَنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ أَغْرَوْا مَعَ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَمَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقَ الشَّجَرِ، وَإِنْ أَحَدُنَا لَيَضَعُ كَمَا تَضَعُ الشَّاةُ)) أَيِ إِذَا جَاءَ يَتَبَرَّرُ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ إِلَّا كَمَا يَخْرُجُ مِنَ الشَّاةِ؛ مِنْ قِلَّةِ الطَّعَامِ الَّذِي أَدْخَلَ فِي جَوْفِهِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ-، أَوْدُوا فِي ذَاتِ اللهِ، وَأُبْتُلُوا، وَهَذَا

مَا حَكَاهُ خَبَابٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَصَدَقَ وَبَرَّ.

((وَفِي نَاحِيَةٍ مِنْ بَيْتِي أَرْبَعُونَ أَلْفًا)): ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا، وَلَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا خَافُوا وَهَذَا هُوَ حَالُ أَهْلِ الْإِيمَانِ، إِذَا أُرِدَتْ أَنْ تَرَى حَالَ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ فِي إِيْمَانِهِ، فَاَنْظُرْ إِلَيْهِ إِذَا جَاءَتْهُ النِّعْمَةُ، أَوْ حَلَّتْ بِهِ النِّعْمَةُ، ابْتَلَى اللَّهُ الْعِبَادَ بِحُلُولِ النِّقَمِ، وَكَثْرَةِ النِّعَمِ، فَإِذَا وَجَدْتُهُ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ النِّعْمَةُ خَافَ وَوَجَلَ وَاتَّقَى اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - فِيهَا، فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَرَادَ بِهِ الْخَيْرَ، وَلِذَلِكَ كَانَ الصَّحَابَةُ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - لَمَّا فُتِحَتِ الْأُمُصَارُ، وَغَنِمُوا الْغَنَائِمَ، وَأَصَابُوا حُظُوظَ الدُّنْيَا كَانُوا عَلَى الزَّهْدِ وَالتَّوَاضُعِ وَلِئِنْ الْجَانِبِ، فَمَا بَطَرُوا، وَلَا تَكَبَّرُوا، وَلَا ارْتَفَعُوا عَلَى النَّاسِ.

كَانَ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - حِينَمَا وَلِيَ الْإِمَارَةَ، وَلَاهُ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ، أَوْ يَسِيرُ مَعَ أَصْحَابِهِ، فَأَرَادَ أَنْ يَتَمَخَّطَ، فَأَخْرَجَ الْمُنْدِيلَ مِنْ جَيْبِهِ، ثُمَّ تَمَخَّطَ، ثُمَّ قَالَ: ((بَخٍ بَخٍ، أَبُو هُرَيْرَةَ يَتَمَخَّطُ فِي الْكِتَانِ))، وَهَذَا مِنَ التَّوَاضُعِ وَالزَّهْدِ أَنَّ الْعَبْدَ الصَّالِحَ إِذَا أَعْطَاهُ اللَّهُ النِّعْمَةَ وَجَدَتْ مِنْهُ التَّوَاضُعَ، سَوَاءً نِعْمَةُ الدِّينِ أَوْ نِعْمَةُ الدُّنْيَا، فَلَا يَتَكَبَّرُ عَلَى النَّاسِ وَلَا يَقُولُ: ((إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي))، وَإِنَّمَا كَانُوا أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى الضَّعْفَاءِ، وَأَرْحَمَ النَّاسِ بِأَهْلِ الْبَلَاءِ؛ لِأَنَّهُمْ ذَاقُوا شِظْفَ الْعَيْشِ، وَذَاقُوا شِدَّتَهُ.

فَهَذَا خَبَابٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - يَبِينُ نِعْمَةَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَكَانُوا لَمَّا جَاءَتْهُمْ الدُّنْيَا أَذْلُوهَا وَاحْتَقَرُوهَا، وَيَبِينُ أَنَّهُ لَا تُسَاوِي شَيْئًا، هُوَ يَقُولُ: إِنَّهُ مَرَّ عَلَيْهِ الْيَوْمُ وَالْأَيَّامُ، وَعَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَيْسَ فِي بَيْتِهِ دَرَاهِمٌ، وَالْيَوْمُ فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ فَقَطْ، فِي جِزَاءٍ مِنَ الْبَيْتِ أَرْبَعُونَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ، فَاَنْظُرْ كَيْفَ احْتِقَارُ الدُّنْيَا وَازْدِرَائُهَا، وَهَكَذَا كَانُوا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -.

وَأَثَرٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ حِينَمَا وَلِيَ الْإِمَارَةَ، وَضَعَ الْحُطْبَ عَلَى ظَهْرِهِ، ثُمَّ دَخَلَ الْكُوفَةَ، وَصَارَ يَصِيحُ: (طَرِّقُوا لِلْأَمِيرِ، طَرِّقُوا لِلْأَمِيرِ)، كَانُوا إِذَا ارْتَفَعُوا يَكْسِرُونَ غُرُورَ النَّفْسِ، وَمَا هِيَ فِيهِ مِنْ زَهْوٍ الدُّنْيَا وَمِنْ مَتَاعِهَا.

وَكَانَ عَتَبَةُ بْنُ غَزْوَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِذَا جَاءَهُ الطَّعَامُ الْفَارَةُ، ذَكَرَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَبَكَى، وَقَالَ: أَيْنَ فُلَانٌ وَأَيْنَ فُلَانٌ؟ قَالَ: حَتَّى إِنَّ مَصْعَبَ بْنَ عَمِيرٍ قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا شِمْلَةٌ، إِنْ غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ بَدَتْ قَدَمَاهُ، وَإِنْ غَطُّوا بِهَا قَدَمَيْهِ بَدَا رَأْسُهُ، فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: ((غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ، وَاجْعَلُوا عَلَى قَدَمَيْهِ إِذْخِرًا، أَوْ شَيْئًا مِنَ الْإِذْخِرِ))، حَتَّى لَمَّا كَفُّوا

وقَدْ خَرَجُوا مِنَ الدُّنْيَا خَرَجَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ إِلَّا شَمْلَةٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ -، لَا تَسْعُ لِتَكْفِيهِ كَامِلَةٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ -.

نعم، خرج من الدنيا بشملة، ولكنه خرج منها بالروح والريحان، والرحمة والرضوان، ورب راض عنه غير غضبان.

خرجوا من الدنيا وقد أرضوا الله في دينه وشرعه.

خرجوا من الدنيا والله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قَدْ أَحَبَّهُمْ، وَأَوْجَبَ لَهُمُ الْمَحَبَّةَ وَوَضَعَ لَهُمُ الْقَبُولَ بَيْنَ خَلْقِهِ. هذه والله هي الدنيا وكرامتها، أَنْ يَخْرُجَ الْعَبْدُ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا - وَلَوْ خَرَجَ فَقِيرًا - غَنِيًّا بِاللَّهِ - جَلَّ جَلَالُهُ - ولذلك خرج أصحاب رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من هذه الدنيا بهذه الكنوز العظيمة من رضا الله - جَلَّ جَلَالُهُ -، والثقة بالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، والأدب مع النعم، والشكر والثناء عليه حينما نزلت بهم النعم، فهذا الصحابي الجليل - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يقول: إِنَّهُ مَرَّ عَلَيْهِ فِي صَحْبَتِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ مَا يَجِدُ الدَّرْهَمَ فِي نَاحِيَةِ بَيْتِهِ أَرْبَعُونَ أَلْفَ دِرْهَمًا، يَتَحَدَّثُونَ بِنِعْمِ اللَّهِ، مَا كَانُوا يَتَكَبَّرُونَ، مَا كَانُوا يَسْتَرْوْنَ مَاضِيَهُمْ، وَلَا يَسْتَحُونَ مِنْ ذِكْرِ هَذَا الْمَاضِي؛ لِأَنَّهُ مَاضٍ مَشْرُقٌ، مَاضٍ مُنِيرٌ، وَإِشْرَافُهُ وَإِنَارَتُهُ بِالْإِيمَانِ وَالتَّسْلِيمِ، وَلَيْسَ بِالتَّصْنَعِ وَالتَّكْلِيفِ، وَلِذَلِكَ تَجَدَّ الْعَبْدُ يَكُونُ فَقِيرًا، فَإِذَا اغْتَنَى نَسِيَ مَاضِيَهُ، وَوَيْلٌ لِأَحَدٍ يَذْكُرُ هَذَا الْمَاضِي، وَرُبَّمَا كَذَبَ وَاخْتَلَقَ الْقِصَصَ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا أَنَّهُ كَانَ وَكَانَ. فَنَسَأَلُ اللَّهَ بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكَمَالِهِ أَنْ يَرْزُقَنَا مَرْضَاتِهِ فِي حُلُولِ النِّعَمِ، أَنْ يَدْفَعَ عَنَّا النِّقَمَ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا مَا يَرْضِيهِ عَنَّا إِذَا حَلَّتْ بِنَا النِّعَمُ، وَأَنْ يَجْعَلَهَا عَوْنًا عَلَى طَاعَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَمَرْضَاتِهِ. ((وَلَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَانَا، أَوْ هِيَ أَنْ نَتَمَنَّى الْمَوْتَ لَتَمَنَيْتُ))، ((وَلَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَانَا)) وهذا يدلُّ على أَنَّهُ هِيَ تَحْرِيْمٌ وَمَنْعٌ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَتَمَنَّى الْمَوْتَ.

((وَلَوْلَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَانَا، أَوْ هِيَ أَنْ نَتَمَنَّى الْمَوْتَ لَتَمَنَيْتُ)) انظر ليس سعة الدنيا بالمال، ولكن سعتها بالله - جَلَّ جَلَالُهُ -، كَانَتْ أَيَّامُهُمْ لَا يَجِدُونَ فِيهَا إِلَّا دِرْهَمًا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، انظر كيف ضيق حال لا يعلمه إلا الله - جَلَّ جَلَالُهُ -، لكنَّ صَحْبَتَهُ لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَعْدَلَ بِهَا الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا، وَلَمَّا فَارَقَهُمْ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا ضِيقَةً عَلَيْهِمْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ -، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ عَظِيمِ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

إِنَّ مَنْ أَجَلَ نِعَمَ اللَّهِ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَكُونَ مُؤْمِنًا صَادِقًا فِي إِيمَانِهِ، فَيَكُونَ أَزْهَدَ مَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا، وَأَرْغَبَ مَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِذَا زَوَى اللَّهُ عَنِ الْعَبْدِ الدُّنْيَا، فَلَمْ يَجْعَلْهَا فِي قَلْبِهِ، وَلَمْ يَجْعَلْهَا أَكْبَرَ هِمِّهِ، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِهِ، فَهُوَ سَعِيدٌ، وَهَكَذَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَنَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنَا حُسْنَ الْإِتْسَاءِ وَالْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ.

إِذَا بَدَتْ لَكَ مَطَامِعُ الدُّنْيَا، فَانْظُرْ إِلَى هَؤُلَاءِ، انْظُرْ إِلَى هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كَيْفَ ضَرَبُوا لَنَا الْمَثَلَ، وَكَيْفَ عَاشُوا، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ هِيَ الْعِزَّةُ وَالْكَرَامَةُ، مَنْ قَالَ: إِنَّ أَمَالَ هُوَ الْعِزَّةُ وَالْكَرَامَةُ كَذَبَ وَفَجَرَ؛ لِأَنَّ قَارُونَ أَهْلَكَهُ اللَّهُ بِمَالِهِ، الْحَيَاةُ السَّعِيدَةُ كُلُّهَا بِاللَّهِ وَبِطَاعَةِ اللَّهِ وَمَرْضَاةِ اللَّهِ.

قَالَ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: ((لَا يَتَمَيَّنُ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِضَرْ نَزَلَ بِهِ، وَلِيَقُلْ: اللَّهُمَّ، أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي)).

الشَّرْحُ:

سَنَقِفُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِيثِ، وَنَكْمِلُهُ فِي الدَّرْسِ الْقَادِمِ -إِنْ شَاءَ اللَّهُ-.

وَأَحَبُّ أَنْ أَنْبَهُ: أَنَّهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ قَدْ يَسْبِقُ اللِّسَانُ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ فِي مَسْأَلَةٍ: ((خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ عَرَفَةَ)) هَذَا فِيهِ سَبْقُ لِسَانٍ، وَهُوَ: ((خَيْرُ الدُّعَاءِ يَوْمَ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي)).

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ فِيهِ: تَفْضِيلُ الدُّعَاءِ.

وَهَذَا لَيْسَ بِحَدِيثٍ وَهُوَ: ((خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ)).

وَأَنْبَهُ: أَنَّهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ قَدْ يَكُونُ السَّبَبُ سَبْقَ اللِّسَانِ فِي ذِكْرِ بَعْضِ الْأَحَادِيثِ، وَهَذَا الَّذِي يَجْعَلُ -إِنْ شَاءَ اللَّهُ- كَثِيرٌ مِنَ الدَّرُوسِ الَّتِي تَفَرَّغَ تُرَاجِعُ، وَأَفْضَلُ أَنَّهُ يَتَأَكَّدُ مِنَ الْأَحَادِيثِ.

وَأَشْكُرُ لِلْأَخُوَّةِ جَزَاهُمْ اللَّهُ خَيْرًا بَعْضُ الْأَخُوَّةِ يَنْتَبِهُونَ لِمَثَلِ هَذَا، وَيَنْبَهُونَ عَلَيْهِ، وَلَا أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ طَالِبُ الْعِلْمِ مَقْلَدًا مُتَعَصِّبًا، لَا يَرْضَى لِأَحَدٍ أَنْ يَرِدَ عَلَى شَيْخِهِ، أَوْ كَأَنَّهُ مَعْصُومٌ، نَحْنُ بَشَرٌ كَثِيرُ الْخَطَا، وَالْفُتُورُ، وَلَيْسَ هُنَاكَ تَسَاهُلٌ فِي شَيْءٍ يَنْسَبُ إِلَى النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَمْ

يقوله هذا ما فيه تساهل، أمر الاعتقاد، أمر الآيات، أمر الأحاديث، هذه ما فيها مجاملة، قيمة الإنسان في دعوتِهِ أَنْ يَقُولَ الْحَقَّ، وأهل العلم مقامهم بالحق، ورفع الله قدرهم بالحق، لا يُجامل طالب العلم إذا وجد حديثاً ضعيفاً.

لكن إذا كان الحديث مُتخلِّفاً في إسناده، فحينئذٍ إذا رجَّح الشيخ ثبوته، ليس من حَقِّكَ أَنْ تلزم الشيخ بتصحيح فلانٍ أو علانٍ، أبداً، لكن أن يكون حديثاً، أو ليس بحديث أصلاً، تكتب للشيخ وتقول: هذا بحث عنه ولم أجده، وإذا كان الإنسان عنده خبرة أو سأل مَنْ يثق بعلمه هذا ما فيه مجاملة، ليس هناك فضل لأحدٍ على هذا الدين، لا يجوز لأحدٍ أَنْ يظنَّ أَنَّهُ أكبرُ مَنْ أَنْ يُردَّ عليه، أبداً، الحق فوق كلِّ أحدٍ، وينبغي أن يكون الإنسان ناصحاً.

وجزى الله بعض الإخوة ليس في هذا الحديث، وإمّا في غيره من الأحاديث أجد مَنْ بعضهم بعض الكتابات، فأسأل الله أن يجزيهم خير الجزاء.

وأنبه الإخوة: أَنْ لا يسيئوا الظنَّ بأمثال هؤلاء أو يقولوا: ما أحدٌ يردُّ على شيخنا، لا أريد هذا أبداً، ليس هناك أحدٌ فوق الحق، كلُّ يُخطئ ويصيب، قد يكون الإنسان مريضاً، قد يسهو أثناء الذكر، قد تجد الآن كمثال بعض القراء تجدهم من أحفظ الناس في القرآن تجدهم بأربع عشرة قراءةً بأسانيد صحيحة عن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- برواياته، ومع ذلك قد تلتبس عليه أوجه القراءات وهذا لا يخطئ مَنْ قدره أبداً، إمّا الذي يخطئ من القدر أن ينبه الإنسان على الخطأ فيصبر وهو يعلم أَنَّهُ خطأ، يأتي إلى شيء موضوع أو مكذوب على النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فتأخذه العزة بالإثم -أَعُوذُ بِاللَّهِ-، هذا ما يجوز، ولا ينبغي لأحدٍ، على المسلم أن يُحبَّ مَنْ أخيه النصيحة، وإذا جاءك أخوك يذكرك وينصحك ويذكرك بحديث أو خطأ قبله بصدور رحب.

ونسأل الله بعزته وجلاله أَنْ يرزقنا التمسك بالسنة، وأن يرزقنا الإذعان للحق والتسليم للحق، اللهم اجعلنا هداة مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، اللهم ارحم ضعفنا، واجبر كسرنا، وكمل نقصنا، واستر عيبنا، اللهم عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير، نسألك بعزتك وجلالك أَنْ تعصمنا من الزلل، وأن توفقنا للقول والعمل، وأن ترشد بنا في أمورنا، يسرنا لليسرى، وجنبنا السوء والعسرى، واغفر لنا في الآخرة والأولى، اللهم اغفر لأبائنا، واغفر لأمهاتنا ومشائخنا ومحبينا ومن أوصانا واستوصانا وحضر مجلسنا وغاب عنا وأحبنا فيك، اللهم اغفر لنا أجمعين، وهب المسبيين منا للمحسنين، وعمنا برحمتك يا أرحم الراحمين، واغفر لنا يا خير الغافرين، وارحمنا يا أرحم الراحمين،

اللهم اجبُرْ كسرنا، وارحمْ ضعفنا، وأصلحْ ذاتَ بيننا، واهدنا سبيلَ السلام، وأخرجنا من الظلماتِ إلى النورِ يا حيُّ يا قيومُ، اللهم إِنَّا نعوذُ بك من زوالِ نعمتك، وتَحَوُّلِ عافيتك، وفجاءةِ نقمتك، ومن جَميعِ سخطك، اللهم أصلحْ لنا ديننا الذي هو عصمةُ أمرنا، وأصلحْ لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلحْ لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعلْ الحياةَ زيادةً لنا في كلِّ خيرٍ، والموتَ راحةً لنا من كلِّ شرٍّ، اللهم اجعلْ ما تعلمناه وعلمناه خالصًا لوجهك الكريم، موجبًا لرضوانك الكريم، واغفرْ لنا فيه كلَّ زللٍ وخطأٍ وخللٍ يا إلهَ الأوليينَ والآخرينَ، وكملْ لنا فيه كلَّ نقصٍ، واسترْ فيه كلَّ عيبٍ، واجبُرْ لنا كلَّ كسرٍ، وأعظمْ لنا به الأجرَ والعاقبةَ والدخرَ يا عظيمُ يا بَرُّ.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.